أناشيد صوفية

جيتانجالى

للشاعر الفيلسوف طاغور

بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب

— ١٣ —

إن اللحن الذى جئت لأترنم به ظل مكفوفاً فى نفسى للآن
وتصرمت الأيام وأنا أشد أوتار قيثاري وأرخيها
لم يأن لى أن أبدأ فالكلمات لم تواتنى ، غير أن الرغبة الملحة تتنزى فى قلبى
إن الكِمّ لم يتفتح ، ولكن الريح ترف حواليه
لم أر وجهه ، ولم أسمع رنات صوته ؛ غير أنى استشعرت خطواته الرفيقة وهو يسير الهوينى أمام دارى
ومر اليوم الطويل وأنا أهيئ له مكاناً ، ولكنى لم أستطع أن أدعوه إلى دارى لأن سراجى كان هامداً
وهأنذا أعيش بالأمل فى لقياه ، ولكن اللقيا لم تحن

— ١٤ —

إن رغباتي كثيرة ، وفى صيحاتى الألم ؛ أفتردنى فى رفض قاس والرحمة منبثة فى أضعاف حياتى هنا وهناك ؟
وعلى مَرّ الأيام جعلتني أستأهل من آلائك العظيمة ما أنعمت به علىّ دون سؤال : هذه السماء والنور ، هذا الجسم والحياة والعقل ثم نجيتنى من خطر الرغبة الجامحة
فى حين كنت أتباطأ فى فتور ؛ وفى حين آخر كنت أهب مسرعاً إلى الغاية ؛ ولكنك كنت تخفى نفسك عنى فى قسوة
وعلى مر الأيام جعلتنى أستأهل منك القبول المحض بعد طول رفضك إياى ، وأنت جنبتنى خطر التخاذل والرغبة المضطربة

— ١٥ —

أنا هنا لأردد لك الأناشيد ، ولأجلس فى زاوية من فنائك لا عمل لى فى دنياك ، فحياتى الخاوية تتفجر عن ألحان لا غاية لها
وعند منتصف الليل ، حين تدق الساعة فى محرابك الظلم ، مؤذنة بصمت العبادة الرهيب ؛ مُرّنى ، يا إلهى ، أن أقف أمامك لأرتل أغانىّ
وبين نسمات الفجر ، وقيثارك الذهبية تصدح ، شرّفنى واطلب إلىّ أن أتقدم نحوك

— ١٦ —

لقد لبيتُ الدعوة إلى مهرجان الحياة ، فكانت حياتى سعيدة .
إن عينىّ تبصران ومسمعىّ تسمعان
وكان عملى فى هذا الحفل أن أعزف على قيثارى ، فبذلت غاية جهدى
والآن ، أسأل : أفلم يأن لى أن أنطلق لأرى وجهك وأحييك فى صمت وهدوء

— ١٧ —

أنا أنتظر من أحب لألقى بنفسى بين ذراعيه . هذا هو عذرى حين أبطأت ، وهو ذنبى حين أهملتُ
لقد جاءوا جميعاً وبين أيديهم القانون ومواده ليوثقوا به قيدى فأفلت من قبضتهم لأنى أنتظر من أحب لألقى بنفسى بين ذراعيه
والناس يلومونى ويرمونى بالغفلة ، ولا ريب فهم على حق
انفضت السوق ، وأنجز كل ذى عمل عمله ، وانصرف الذين جاءوا يتصحونى وفيهم الغيظ والغضب ؛ وأنا أنتظر من أحب لألقى بنفسى بين ذراعيه

— ١٨ —

إن السحب تتكاثف فى السماء والدنيا تظلم ؛ آه ، يامن أحب ، لماذا تركتنى وحيداً فى هذا العراء ؟ عند الظهر فى ساعات العمل ،

الحداد بيضاء . إذ نقرأ فى تاريخ الأندلس للمقرى هذه العبارة : « عليهم الظهائر البيض شعار الحزن »
. ويلبس العرب ثياباً حمراء أو صفراء حينما يريدون الدلالة على الغضب . وقد جاء فى كتاب ألف ليلة وليلة هذه العبارة : « لبس بدلة الغضب وهى بدلة حمراء » ولكن هذه العادة ربما كانت عادة تركية
أما فى الغرب فكان اللون الأصفر هو الذى يدل على الغضب فقد لاحظ بيدودى سن أولون وويندوس Pidoude St . Olon et Windus أن ملوك مراكش كانوا إذا اعتزموا أن يسفكوا دماً لبسوا فى الغالب ثياباً صفراء

محمد طه الحاجرى

أندفع بين الزمر . والآن فهذا اليوم الظليل الهادىء هو لك يامن تعلق به أملى

فإذا لم تطلع علىّ لأجتلى النور من وجهك ، وتركتنى وحيداً فكيف أقضى هذه الساعات الطويلة المطرة

أنا أحدق فى السماء المتجهمة ، وقلبى المضطرب يئن مع الرياح العاصفة

— ١٩ —

إذا لم تتحدث حديثك فاملأ قلبي من صمتك العميق وأحمله راضياً ؛ سأطمئن وأنتظر كالليل لتسهر كواكبه ورأسه مطاطأ فى صبر

لا ريب فالصباح آت ليبدد الظلمات ، وسيتدفق صوتك فى مجاريه الذهبية يخترق أطباق السماء ، وسيرفرف كلمك فى جناحى لحن كأنه طيرى الغريد ، وتتفتح أنغامك عن زهر فى أنحاء حديقتي

— ٢٠ —

يا أسفا ! فى اليوم أينعت زهرة اللوتس . كان عقلى مضطرباً فلم أحس بها ، وكانت سلتى فارغة ولكن الزهرة ظلت مكانها

الآن شملنى حزن عميق ، فهببت من حلمى لأستروح نسمات عطرية تحملها رياح الجنوب

فبعثت هذه النسمات الحلوة فى قلبى آلام الحنين ، وتراءت لى كأنها زفرات الصيف العاشق وهو يفتش عن نصفه الآخر

ما كنت أعلم أن هذه الزهرة على خطوات منى ، وأنها هى لى ، وأن هذه الحلاوة قد تفتحت فى أعماق قلبى

— ٢١ —

لا بد أن أتناول غدائى على الشاطئ ، ومرت الساعات متباطئة على الشاطئ . فيا أسفى !

لقد تفتح الربيع عن زهراته وأوراقه الخضراء ، وأنا أضرب فى الأرض منتظراً وعلى كتفى حمل من زهراتى الذابلة الذاوية

الأمواج تضطرب فى صخب ، وعلى الشاطئ شجرات من الخوخ يانعة تعصف الريح بأوراقها الصفراء

لماذا تحدق فى الفضاء ! أفلا تستشعر فى الهواء هزات تحمل نغم لحن جاء فى أضعافها من الشاطئ الآخر

— ٢٢ —

تحت ظلال شهر يوليه المطير ، تسير أنت فى خطوات هادئة وفى صمت لا يشعر به الرقيب

واليوم أغمض الصباح جفنيه ، لا يعبأ بصفير الرياح الشرقية وهى تلح فى ندائها ، وقد أسدل نقاب كثيف على وجه السماء الأزرق المتألق

وأمسكت الغابة عن ترديد لحنها ، وغلقت الأبواب ؛ وأنت... أنت يا عابر السبيل تضرب فى الطريق الصحراوى وحيداً . أوه ، يا صديقى العزيز ، يا من أحب ، إن باب دارى مفتوح على مصراعيه فلا تمر به كأنك حلم

— ٢٣ —

يا صديقى ، أفأنت في المراء تتم رحلة الهوى فى هذه الليلة العاصفة ؟ وإن السماء تئن كأنها مصدور ينفس عن نفسه

لقد أرقت الليلة ، يا صديقى وباب دارى مفتوح فانظر إليه فى هذا الظلام الدامس . أنا لا أرى — فى هذا الظلام — شيئاً مما أمامى ، فلا أستطيع أن أجد الطريق إليك

عند شاطىء أى نهر مظلم قاتم ، لدى حافة أية غابة سوداء حالكة ، وفى ثنايا أى عمق معتم منعزل ، جلست يا صديقى ، ترسم فى نفسك الطريق إلىّ

— ٢٤ —

إذا انطوى النهار ، وصمتت الطيور الغريدة ، وهدأت الرياح الزفزافة ؛ فانشر علىّ قناعاً صفيقاً من الظلمة كما نشرت على الأرض أستار النوم ، وكما لفقت أوراق زهرة اللوتس الذابلة فى غيابة الظلام

نحّ عن السائح الذى نفد زاده ، وتمزقت ثيابه ، وتشعث واغبر ، وخارت قوته ، وانطفأت منته ، قبل أن يبلغ غايته ... نحّ عنه الضنا والفقر ، وانفث فيه من روح الحياة ليكون كزهرة تلفعت برداء الليل الرفيق

— ٢٥ —

فى الأمسية التى أكدّنى فيها الجهد ، دعنى أنم هادئاً وفى نفسى الإيمان بك

ولا تطلب إلىّ أن أرهق نفسى التعبة بعبادتك

فأنت الذى حسرت عن عينى النهار نقاب الظلام ليبدو فيهما النشاط والمرح من جديد بعد أن أضناها التعب والأسى

فاضل محمود حبيب